مكان العلوم الطبيعية ومكانتها في منظومة التربية الدينية الإسلامية

للدكتور عبد الغنى عبود(*)

يعرف الدين (Religion) لغة بأنه ما يدين به الإنسان، أى ما يؤمن به ويعتقده(١)، وذلك لأنه على أساس هذا الذى يعتقده الإنسان، تكون كل تصرفاته ومشاعره وتفكيره(٢)، بوصف الدين يعنى الخضوع والانصياع يقال (دان) دينا وديانه: خضع وذل و(دان) أطاع و(دان) بكذا.اتخذه دينا وتعبد به(٣).

وينطلق هذا التعريف اللغوى للدين من حقيقة كون الإنسان يولد "وبه إيمان فطرى بوجود قوة خفية تسيطر عليه، وعلى الحياة من حوله قوة يفزع إليها عند الحاجة، ويطمئن بوجودها في حياته"، "غير أن هذه النزعة قد اختلفت من جيل إلى جيل، ومن عصر إلى عصر، ومن مكان إلى مكان"(٤)،

(*) أستاذ ورئيس قسم التربية المقارنة والإدارة التعليمية بكلية التربية جامعة عين شمس

(١) إلياس أنطون إلياس، وإدوار أ. إلياس: *القاموس العصري (عربي/ إنجليزى)* - الطبعة التاسعة - المطبعة العصرية - القاهرة - ١٩٨٠م، ص ٢٢٩.

(٢) Michael Philip west and James Gareth Endicott: ***The New Method English Dictionary***: Twenty fourth Impression Longman Group Ltd., 1976, p. 257.

(٣) مجمع اللغة العربية: *المعجم الوسيط* - قام بإخراجه إبراهيم مصطفى وآخرون - وأشرف على طبعه عبد السلام هارون - الجزء الأول - مطبعة مصر - القاهرة - ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م، ص ٣٠٦.

(٤) عبد الرزاق نوفل: *الله والعلم الحديث* - الناشرون العرب - دار الشعب القاهرة - ١٩٧١م، ص ١٥، ١٦.

ولكنها على الدوام "تتلمس آفاق النور دائما"، و"لا تغفل عن وظيفتها أبدا"[٥]، كما ينطلق ذلك من كون الدين لذلك "لازمة من لوازم الجماعات البشرية، لأنه مصلحة وطنية، أو حاجة نوعية: لأن الدين قد وجد قبل وجود الأوطان، ولأن الحاجة النوعية (بيولوجية)، تتحقق أغراضها في كل زمن، وتتوافر أسبابها في كل حالة، ولا يزال الإنسان بعد تحقق أغراضها، وتوافر وسائلها، في حاجة إلى الدين"[٦].

ولا يبتعد الدين اصطلاحيا كثيرا عن تعريفه اللغوى، إذ يعرف بأنه (مجموعة معتقدات، تؤمن بها جماعة ما، وتكون نظاما متصلا، وتتعلق في الغالب بعالم ما بعد الطبيعة)[٧]، وهذه المعتقدات التى تكون نظاما متصلا، يمكن تسميتها (العادة والحال والسيرة والسياسة والرأى والحكم والطاعة والجزاء)[٨]، وقد يفصله البعض تفصيلا أكثر، فيراه (مجموعة معتقدات وعبادات مقدسة تؤمن بها جماعة معينة لسد حاجة الفرد والمجتمع على

---

(٥) عبد الكريم الخطيب: *الله ذاتا وموضوعا، قضية الألوهية بين الفلسفة والدين* – الطبعة الثانية – دار الفكر العربي – القاهرة – ١٩٧١م، ص ٩٠.

(٦) عباس محمود العقاد: *الفلسفة القرآنية* – دار الإسلام بالقاهرة – ١٩٧٣م، ص ٥، ٦ (من المقدمة).

٧) A. Zaki Badawi: ***A Dictionary of the Social Sciences, English - French - Arabic***: New Impression, Libraire du Liban, Beirut, 1986. p. 353.

(٨) الدكتور جميل صليبا: *المعجم الفلسفي*، بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية – الجزء الأول – دار الكتاب اللبنانى في بيروت، ودار الكتاب المصرى بالقاهرة – ١٩٨٢م، ص ٥٧٢.

السواء، أساسه الوجدان، وللعقل مجال فيه)[٩].

وهكذا يمكن تحديد الدين - اصطلاحيا - بأنه "نظام اجتماعي، يقوم على وجود موجود أو أكثر، أو قوى فوق الطبيعة، ويبين العلاقات بين بنى الإنسان وتلك الموجودات، وتحت أية ثقافة معينة، تتشكل هذه الفكرة، لتصبح نمطا أو أنماطا اجتماعية، أو تنظيما اجتماعيا)[١٠].

وهكذا لايكون من طبيعة الدين أن يكون حبيس الضمير، وأن يتحول إلى مجرد (علاقة خاصة) تربط بين الإنسان وربه الذى اختاره، واستراح إليه قلبه وإنما شأنه أن يحرك هذا الضمير الفردي الذى رسخ فيه على نحو معين، فيتحرك الكيان الإنساني كله نحو (فعل) معين، (فالإنسان مرتبط في كل أفعاله بدينه)[١١]، وكذا المجتمع الإنساني لا وجود له بدونه، فما (من قبيلة أو شعب، أو حضارة إلا ولها دينها وآلهتها)[١٢]، مما يجعل (العقيدة الدينية هى فلسفة الحياة بالنسبة إلى الأمم التى تدين بها)، (فليس في وسع فيلسوف صادق النظر أن ينسى أن الأديان قد وجدت بين جميع البشر، وأنها من ثم حقيقة كونية،

---

(٩) مجمع اللغة العربية: ***المعجم الفلسفي*** - الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية - القاهرة - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ٨٦.

(١٠) حسن سعفان: (دين) - ***معجم العلوم الاجتماعية*** - إعداد نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين - تصدير ومراجعة الدكتور إبراهيم مدكور - الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٧٥م، ص٢٧٠.

(١١) H. W. Fowler and F. G. Fowler (edited by): ***The concise Oxford Dictionary of current English***, based on the Oxford Dictionary; Fourth Edition, Revised by E. Mcintosh, Oxford, at the clarendon press, 1951, p. 1029.

(١٢) الدكتور أحمد عروة: ***الإسلام في مفترق الطرق*** - نقله عن الفرنسية الدكتور عثمان أمين - دار الشروق القاهرة - ١٩٧٥م، ص ٣٢.

لايستخف بها عقل يفقه معنى ما يراه من ظواهر الحياة[١٣].

ومن ثم يكون الحديث عن (التربية الدينية) بمعزل عن غير الدين من الحياة الأخرى، حديثا مضادا لمنطق الدين، وتكون هذه التربية الدينية أى شيء، إلا أن تكون دينية، بالمعنى الذى رأيناه للدين.

معنى التربية الدينية:

إذا اتفقنا مع كل من جون ديوى (Dewey John) وإسحاق كاندل (Isaac Kandel) في أن التربية "هى الحياة ذاتها، وليست مجرد الإعداد للحياة"[١٤]، فإن حياة الإنسان ليست مجرد حياة مادية أو بيولوجية فقط، وإنما هى حياة أوسع وأرحب، رغم أهمية هذا الجانب المادي أو البيولوجى في حياة الإنسان، حتى أن الدين ذاته – أى دين – إنما جاء لتنظيمه وتهذيبه هو، ولتوضيح الطريقة أو الطرق التى يتعامل بها – به – مع العالم الخارجي – عالم الناس والأشياء – عالم الشهادة، إضافة إلى تعامله – به أيضا – مع عالم الغيب بطبيعة الحال.

والتربية مجال واسع من مجالات الحياة، بحيث "لايمكن أن يحيط بها البحث"[١٥]، على حد تعبير كلنتون هارتلى جراتان، فهى – من ناحية – تشمل

---

(١٣) عباس محمود العقاد: الفلسفة القرآنية (مرجع سابق)، ص ٧ (من المقدمة).

(١٤) - John Dewey: ***Education T0 - day***; G. P. Putmans Sons, New York, 1940, p.6.
-I.L.Kandel: ***American Education in the Twentieth Century***; Harvard University press, Cambridge, Massachusetts, 1957, p.111.

(١٥) كلنتون هارتلى جراتان: ***البحث عن المعرفة، بحث تاريخي في تعلم الراشدين*** – ترجمة عثمان نوية–تقديم صلاح دسوقى–مكتبة الأنجلو المصرية–القاهرة – ١٩٦٢م، ص٩.

كل نواحى الحياة، "جسدية كانت أم عاطفية أم اجتماعية أم فكرية أم فنية أم أخلاقية أم روحية"[١٦]، وهى - من ناحية أخرى - "ليست قاصرة على مرحلة معينة في حياة الفرد"، "بل هى عملية مستمرة طوال حياته، فهى من المهد إلى اللحد"، كما أنها "ليست قاصرة على ميدان واحد"، "بل توجد في جميع الميادين والبيئات والأماكن التى يعيش فيها الفرد"[١٧]. ومن خلال حركة الإنسان هنا وهناك، يتحقق له النمو، الذى يأتى عن طريق الخبرة، التى نكتسبها من مواقف الحياة المختلفة[١٨]، على حد تعبير جون ديوى، حيث تتراكم خبرات الإنسان، وتتصل ببعضها، وترتبط ارتباطا معينا، لتكون نمطا خاصا لشخصية الفرد، يتجه إلى مزيد من النمو، ويحقق بذلك أحسن التكيف، بين الفرد وبيئته"[١٩].

والتربية بهذا المعنى قديم قدم الإنسان ذاته على الأرض، فقد استفاد "منذ أقدم العصور" - "من ملكة التكلم، لأنه أخذ، بطريقة مقصودة، ينقل من فرد إلى فرد، ومن جيل إلى جيل، ومن جماعة إلى أخرى، أخذ ينقل إليهم ما اكتسبه من التجارب العملية، وما أدركه من أسرار الطبيعة، وما وضعه من

---

(١٦) الدكتور محمد فاضل الجمالى: ***آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية*** - الدار التونسية للنشر - تونس - ١٩٦٨م، ص ١٢٧.

(١٧) صلاح العرب عبد الجواد: ***اتجاهات جديدة في التربية الصناعية*** - من سلسلة (دراسات في التربية) - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٦٢م، ص ٣٤.

١٨) John Dewey: ***Democracy and Education an introduction to the philosophy of Education***; The Macmillan Company, New York, 1916, p. 22.

(١٩) الدكتور: محمد لبيب النجيحى: ***مقدمة في فلسفة التربية*** - الطبعة الثانية - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٦٧م، ص ١١٧.

القواعد والشعائر والمحرمات، وبذلك استطاع الإنسان الذى وضع ذاكرته في خدمة المجتمع، أن يحافظ على بقاء الجنس البشري، عن طريق تنمية المواهب والملكات التى انفرد بها، دون غيره من الحيوانات(٢٠).

وهذه الخبرات التى تتراكم لدى الإنسان نتيجة احتكاكه وتفاعله مع عناصر الطبيعة المختلفة إنما تتكيف وتتشكل وفق (نظام) معين، يقوده ويوجهه ذلك المنهج الخفى الفاعل والمؤثر في النظام أى نظام، وهو الرؤى الدينية التى يراها أعضاؤه، والمحركون له، والمتحركون معه، حيث أن الإنسان "حيوان ميتافيزيقى أيضاً"، لأن "وعى الإنسان لا يشمل حاجاته الفيزيولوجية وحدها، بل ينبسط إلى ما وراء ذاته، في الزمان والمكان"(٢١).

وهذه الرؤى الدينية (تتغلغل) في داخل النظام التعليمي وتحركه على نحو أو آخر، كما تتغلغل – على نحو أو آخر أيضا – في مناهج الدراسة المختلفة، وفي المقررات الدراسية على اختلافها، فهذه "المهمة الدينية المركزية كامنة في كل تدريس، بغض النظر عن ميدان الدراسة، وهى الهدف الذى لابد له أن يسيطر على تدريس الرياضيات والآداب والفنون الميكانيكية والرقص الحديث والكيمياء العضوية والقانون. فكل دراسة "وسيلة مناسبة لتدريس هذا الدرس الأساسي"، "وكل هيئة تربوية" "يمكنها أن تكون – بل ويجب أن تكون – جهة للتعليم الديني".

"وعلى هذا، (فالدين) لاينبغى أن يعتبر – بالدرجة الأولى – مادة دراسية خاصة، شأنه شأن الجغرافيا أو الفيزياء، وإنما ينبغى أن يعتبر توجيها

---

(٢٠) أيدجار فور وآخرون: *تعلم لتكون* – ترجمة د. حنفى بن عيسى – الطبعة الثالثة – اليونسكو/ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر – ١٩٧٩م، ص ٤٣، ٤٤.

(٢١) الدكتور أحمد عروة (مرجع سابق)، ص ٣١.

للحياة، يتم في جميع الدراسات الخاصة، وعن طريقها"[٢٢].

أهداف التربية الدينية:

للتربية الدينية في أى مجتمع هدف مركزى تسعى إلى تحقيقه، وهو ربط الإنسان المتعلم بعجلة الحياة في المجتمع، وتمكينه من أن يتشرب نمط حياتها - أو ثقافتها - فيكون - بذلك - معبرا عن "ذلك النسيج الكلي المعقد من الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد والاتجاهات والقيم وأساليب التفكير والعمل وأنماط السلوك"[٢٣]، إضافة إلى "الرموز والمشاعر والانفعالات والوجدانات، التى تحكم حياة المجتمع، في علاقاته مع الطبيعة والمادة، وفي علاقات أفراده ببعضهم، وبغيرهم من المجتمعات"[٢٤]، فهذا هو هدف التربية - التى هى دينية بطبيعتها منذ كانت - كما سبق - وسوف تظل، حيث كان لها - في المجتمعات القديمة والبدائية - غرض محدد واضح - كما نعرف - "هو عين الغرض الذى نتبينه في أرقى أشكال نظمنا المدرسية، ألا وهو إعداد الحدث للحياة"[٢٥]، حيث "يتم نقل العادات وأنماط التفكير والإحساس، من

---

(٢٢) فيليب هـ. فينكس: *التربية والصالح العام* - ترجمة السيد محمد العزاوى والدكتور يوسف خليل - مراجعة محمد سليمان شعلان - تقديم السيد يوسف - الجمهورية العربية المتحدة - وزارة التربية والتعليم - القاهرة - ١٩٦٥م، ص ٣١٠، ٣١١.

(٢٣) دكتور الدمرادش سرحان، ودكتور منير كامل: *المناهج* - الطبعة الثالثة - دار العلوم للطباعة - القاهرة - ١٩٧٢م، ص ٤٨.

(٢٤) الدكتور حامد عمار: *في بناء البشر دراسات في التغير الحضاري والفكر التربوي* - الطبعة الثانية - دار المعرفة - القاهرة - مايو ١٩٦٨م، ص ٢٧.

(٢٥) جروف سامويل داو: *كتاب المجمع ومشاكله (مقدمة لمبادئ علم الاجتماع)* - ترجمة إبراهيم رمزى - المطبعة الأميرية ببولاق - القاهرة - ١٩٣٨م، ص ٢٦٦.

الكبير إلى الصغير"[٢٦]، فهذه عند جون ديوى (John Dewey) هـى وسيلة استمرار المجتمـع، "تماما كما يحدث في الحياة البيولوجية"[٢٧]. وإذا كانت أنماط الحياة قد تشكلت في المجتمعات منذ البداية وفق معتقدات ورؤى دينية، فإنها تستمر بانتقالها وفق هذه الرؤى حتى ولو غابت عن الأنظار، في خضم الحياة الهادر الجارف، حيث تظل هذه الرؤى هى (المفاتيح) التى لايمكن فهم ما يجرى على أرض الواقع بدونها.

وسائل تحقيق أهداف التربية الدينية:

يكاد المتخصصون في التربية جميعا أن يقسموا التربية إلى تربية مدرسية أو نظامية أو صفية (Formal Education)، هى التربية التى تعودنا أن نتحدث عنها فيما نكتب، وفيما نفكر وفيما نحاور ونناقش، بوصفها الشكل الأكثر مناسبة، والأكثر احتراما، والأكثر رسوخا، والأكثر ضبطا، والأكثر مردودا في الوقت ذاته، عبر تاريخ التربية الطويل، مما يجعل "المدرسة ستظل في الحاضر والمستقبل، هى العامل الحاسم في تكوين الإنسان القادر على المساهمة في تنمية المجتمع، وعلى المشاركة الفعالة في الحياة العامة كما أنها ستظل هى العنصر الأساسي، لإعداده إعداداً صالحاً للعمل".

- "ولا شك أن المدرسة هى المؤسسة التى يحصل فيها الإنسان على الخبرة العلمية وعلى الأفكار التى يدرك بها جوهر المسائل ويتفهم الظواهر.

- كما أنه يحصل فيها على المعرفة المنهجية، وعلى الوسائل التى تمكنه من أن يستفيد من المعلومات المتواردة إليه من كل صوب، فيستوعبها بكيفية

---

٢٦) John Dewey: ***Democracy and Education***; op. cit. pp. 3, 4.

٢٧) Ibid., p. 3.

إيجابية.- وهذا لا يتأتى كما قلنا إلا إذا تعلم تعلما منظما، في مدرسة مؤسسة لهذا الغرض"[٢٨].

ومع هذه التربية المدرسية/ النظامية/ الصفية (Formal Education)، ظهرت - منذ البداية أيضا - التربية غير النظامية أو غير الصفية أو اللامدرسية (Non Formal Education)، التى يدل اسمها عليها، والتى رافقت التربية النظامية منذ بدايات ظهورها، ولكنها لم تصل إلى درجة الأهمية والفاعلية والتأثير، التى صارت - بها - منافسا خطيرا للتربية النظامية، إلا في هذا العصر، خاصة مع بدايات النصف الثانى من القرن العشرين، حيث التطور التكنولوجى الهائل، خاصة في مجال الاتصال والبث الإذاعى والتليفزيونى، وهو التطور الذى بلغ مداه في العقد الأخير من هذا القرن، حيث "الثورة العلمية التقنية تتميز بالطابع الإعلامي بالمعنى الواسع لهذه الكلمة، أى أنها قادرة على الإحاطة بالمكان في أبعاده الشاسعة، والإحاطة بالزمان في أدق لحظاته، والإحاطة بالعدد على ما فيه من أرقام لاتكاد تحصى.

- وبذلك فإنها تختلف عن جميع التحولات التاريخية التى يلذ للبعض أن يشبهوها بها، كعصر النهضة أو الثورة الصناعية، وغيرهما من التحولات التى لم تنتشر آثارها بكيفية واحدة في العالم، بل اختلف الأمر بحسب المناطق الجغرافية، وبحسب فئات السكان"[٢٩].

وقد كان من نتائج تعاظم دور وسائل وأدوات هذه التربية اللامدرسية اتضاح عيوب التربية المدرسية، واشتداد الهجوم عليها، "وظهور مصطلحات

(٢٨) إيدجار فور وآخرون (مرجع سابق)، ص ٣٢، ٣٣ (من الديباجة، كتبها إيدجار فور).

(٢٩) المرجع السابق، ص ٢٣ (من الديباجة. كتبها إيدجار فور).

مثـل اللامدرسـية أو اللاتمـدرس (Deschooling) أو المدرسـة تمـوت (School is dead)، فقد قاد إيفان إيليتش حملة ضد التعليم المدرسي، منطلقا من أننا تعلمنا معظم ما نعرفه خارج المدرسة، وأن الشيء المأساوى أن معظم الناس تعلموا دون أن يدخلوا مدارس"(٣٠).

ولا نريد أن نغالى في الإعلاء من شأن هذه التربية أو تلك، فكلتاهما موجودة ومؤثرة وفاعلة، وإن كان شكل هذا الوجود وتأثيره وفاعليته يختلف في كل منهما عنه في الأخرى، وكل ما يمكن قوله في هذا المجال أن عليهما أن تعملا معًا، وأن تكمل إحداهما الأخرى، وأن تعبرا معا عن هوية الأمة، أو عن الدين السائد فيها، بحيث لا تتناقض آثارهما التربوية، فتتمكنا – معا – من ترقية الأمة والنهوض – من خلال أبنائها – بتبعات التنمية وأعبائها، مع وضع المتغيرات العالمية من حول الأمة في الاعتبار بطبيعة الحال.

العلوم والمعارف في التربية الدينية:

يخطئ من يظن أن التربية الدينية هى مجرد تربية بالقدوة/ التقليد، رغم أهمية القدوة في مثلها، بوصف المقتدى به يكون (تجسيداً) للدين الذى يدعو إليه، وتعبيرا حيا عن هذا الدين، مما يعتبر دليلا عمليا على إمكانية تحويل أفكاره ورؤاه، إلى حياة تعاش على الأرض، فلا تكون مجرد (حبيسة) الضمير، فهذا هو معنى الدين كما رأيناه، وهذا هو هدف السماء عندما أرسلت رسولا من بعد رسول.

---

(٣٠) الدكتور أحمد إسماعيل حجى: *التعليم الجامعى المفتوح، مدخل إلى دراسة علم تعليم الراشدين المقارن* – دار النهضة العربية – القاهرة – ١٩٩٣م، ص ١٩.

ذلك أن (القدرة) ذاتها إنما تتمثل (فكرة)، وتكون تعبيرا عنها، ومن ثم تكون العلوم والمعارف هى (البداية) في أى دين، وتكون هى المنطلق.

ومعروف أن القرآن الكريم هو (كلام الله)، نزل به الروح الأمين على قلب محمد (صلى الله عليه وسلم)، شاملا العلوم والمعارف اللازمة لتوضيح أبعاده، ومن ثم كان "القرآن هو قانون الإسلام والسنة هى تطبيقه"(٣١)، و"كان القرآن الكريم هو كتاب الدين الإسلامي، وهو الوحى المنزل من عند الله"، وكان له "منهجه الذى يتوجه إلى النفس بأكملها"، يقدم لها "عقيدة دينية واضحة، وهذه العقيدة هى فلسفة الحياة بالنسبة للمسلمين وهى "تتناول حياة الإنسان في جميع مراحلها، وتجيب على تساؤلاته المختلفة، في إطار متكامل، يحدد مناشط الإنسان في حياته"(٣٢).

وتقع عين الإنسان – أول ما تقع – على عناصر الطبيعة من حوله، وحول هذه العناصر دارت خيالات الشعراء من قديم، ولكن القرآن الكريم – عندما تعامل معها – تعامل معها بشكل آخر، و"كم هو رائع أن تكون وجهة نظر القرآن الكريم في هذا الكون الذى نعيش فيه، هى وجهة نظر العلم الحديث، التى توصل إليها بعد قرون من البحث العلمي المخلص، مستخدما فيها أحدث الوسائل العلمية والتكنولوجية"(٣٣).

---

(٣١) محمد الغزالى: ***فقه السيرة*** – مطابع على بن على الدوحة (قطر)، ص ٣٧.

(٣٢) على خليل أبو العينين: ***فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم*** – الكتاب الثانى من سلسلة (مكتبة التربية الإسلامية – الطبعة الأولى دار الفكر العربي – القاهرة – ١٩٨٠م، ص ٧٣، ٧٤.

(٣٣) دكتور عبدالغنى عبود: ***الإسلام والكون*** – الكتاب الثالث من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) – الطبعة الثانية – دار الفكر العربي – القاهرة ١٩٨٢م، ص ١٧.

كما يلفت نظر قارئ القرآن الكريم وفرة عدد المرات التى ترد فيها تلك العناصر الطبيعية حيث يرد ذكر الأرض وحدها ٤٥١ مرة، مرفوعة ٣٤ مرة[٣٤]، ومنصوبة ٨٦ مرة[٣٥] ومجرورة ٣٣١ مرة[٣٦]، وحيث يرد ذكر السماء (بحركاتها الثلاث) ١٢٠ مرة[٣٧]، كما يرد ذكرها مجموعة (السموات) ١٩٠ مرة[٣٨] إضافة إلى عناصر الطبيعة الأخرى بطبيعة الحال، وهى ترد حين ترد، لا لإلهاب الخيال وإطلاقه، بل لتحريك الكيان الإنساني كله نحو الكون وربه، وربطه (بأسباب) الحياة من حوله ربطا أفضل ولتحريك عقله نحو التفكير والتأمل والتدبر، حيث نجد الفعل المضارع (تعقلون) وحده، دون استخداماته الأخرى ٢٤ مرة فيه[٣٩]، (ويعقلون) ٢٢ مرة[٤٠]، كما نجد الفعل المضارع (تعلمون) يتكرر وحده - دون استخدامات الفعل الأخرى - ٥٦ مرة[٤١]، (ويعلمون) ٨٥ مرة[٤٢]، مما يدل على أن القرآن الكريم يتجه بخطابه - أول ما يتجه - ولأول مرة في الفكر الديني تقريبا - إلى هذا العقل، الذى

---

(٣٤) محمد فؤاد عبد الباقى: *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم* - دار القلم - بيروت - مكتبة المعارف - الرياض، ص ٢٦، ٢٧.

(٣٥) المرجع السابق، ص ٢٧، ٢٨.

(٣٦) المرجع السابق، ص ٢٨ - ٣٢.

(٣٧) المرجع السابق ص ٣٦٢ - ٣٦٤.

(٣٨) المرجع السابق ص ٣٦٤ - ٣٦٦.

(٣٩) المرجع السابق ص ٤٦٨.

(٤٠) المرجع السابق ص ٤٦٨، ٤٦٩.

(٤١) المرجع السابق ٤٧٠، ٤٧١.

(٤٢) المرجع السابق ص ٤٧٣، ٤٧٤.

يلفت نظر أى دارس التفاته إليه، وتركيزه عليه، وتنويهه به، والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف.

– ففي كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة أو مضمونة إلى العقل، أو إلى التمييز، ولكنها تأتى عرضا غير مقصودة، وقد يلمح فيها القارى بعض الأحايين شيئا من الزراية بالعقل، أو التحذير منه، لأنه مزلة العقائد، وباب من أبواب الدعوى والإنكار.

ولكن القرآن الكريم لايذكر العقل إلا في مقام التعظيم، والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتى الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هى تأتى في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة، باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهى، التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله، وقبول الحجر عليه(٤٣).

وهكذا يكون غياب (العلم) و(الرؤية العلمية) و(عناصر الطبيعة) عن التربية الدينية، أمرا لايمكن قبوله في الدين – أى دين، خاصة إذا كان هذا الدين هو الإسلام، بما رأيناه من منظور له إليها جميعا.

وربما كان الاختلاف بين الإسلام وغيره في هذا المجال، هو اختلاف في (الرؤية)، والاختلاف في (تفسير) هذه الروية، والاختلاف في ضم (المرئيات) جميعا وفق (نظام) ينتظمها، لتكون (الرؤية الكلية)، الموصلة إلى الله سبحانه، غاية الغايات في التربية الإسلامية.

---

(٤٣) عباس محمود العقاد: *التفكير فريضة إسلامية* – الطبعة الأولى – المؤتمر الإسلامي – دار القلم – القاهرة، ص ٥، ٦.

العلوم الطبيعية والكونية في التربية الدينية:

يبدأ الإمام أبـو حـامد الغزالـى (٤٥٠ - ٥٠٥ = ١٠٥٩ - ١١١٢م) تصنيفه الضخم - والأكثر شهرة وانتشارا وتأثيرا من بين ما كتب - وهو كثير كثير - ومتنوع متنوع[٤٤] - (إحياء علوم الدين)، بكتاب يسميه (كتاب العلم)، ويقسمه إلى سبعة أبواب، "(الباب الأول) في فضل العلم والتعليم والتعلم، (الباب الثاني) في فرض العين وفرض الكفاية من العلوم، بيان حد الفقه والكلام من علم الدين، وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا، (الباب الثالث) فيما تعده العامة من علم الدين وليس منه، وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره، (الباب الرابع) في آفات المناظرة، وسبب اشتغال الناس بالخلاف والجدل، (الباب الخامس) في آداب المعلم والمتعلم، (الباب السادس) في آفات العلم والعلماء، والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة، (الباب السابع) في العقل وفضله وأقسامه، وما جاء فيه من الأخبار"[٤٥].

أما عن فضيلة العلم والتعليم والتعلم، فنتركها، لأنها أصبحت - الآن من الأمور التى يتعارف عليها الناس، العام منهم والخاص على السواء، وكذا ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية من العلم، ونقف فيه فقط - عند "بيان العلم الذى هو فرض عين"، حيث "اختلف الناس في العلم الذى هو فرض على كل مسلم، فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة، ولا نطيل بنقل التفصيل، ولكن

---

(٤٤) للتفصيل - ارجع - مثلا - إلى:

- دكتور عبد الغنى عبود: *الفكر التربوى عند الغزالى، كما يبدو من رسالته (أيها الولد)* - الطبعة الأولى - دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٨٢م، ص ٣٠، ٣١.

(٤٥) الإمام أبو حامد الغزالى: *إحياء علوم الدين* - المجلد الأول - دار الفكر العربي، ودار نهر النيل - القاهرة، ص ١٠.

حاصله أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذى هو بصدده، فقال المتكلمون: هو علم الكلام، إذ به يدرك التوحيد، ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته، وقال الفقهاء: هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات، والحلال والحرام، وما يحرم من المعاملات وما يحل"(٤٦)، "وهذا هو الحق في العلم الذى هو فرض عين، ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب، فمن علم العلم الواجب، ووقت وجوبه فقد علم العلم الذى هو فرض عين"(٤٧).

ثم يصل الغزالى إلى أن "الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم، والعلوم بالإضافة إلى الفرض الذى نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية، وأعنى بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة. فالعلوم التى ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم، وإلى ما هو مباح، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب، وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية، وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة.

– أما فرض الكفاية، فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب، إذ هو ضرورى في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب، فإنه ضرورى في المعاملات وقسمه الوصايا والمواريث وغيرهما"(٤٨).

وأخيرا وليس آخرا يصل بنا الغزالى إلى أن كل العلوم التى يسميها بالعلوم الشرعية، لاغنى لها عن علوم كعلم اللغة والنحو وكتابة الخط وعلم

(٤٦) المرجع السابق ص ١٨.

(٤٧) المرجع السابق ص ١٩.

(٤٨) المرجع السابق ص ٢٠.

الرجال والأنساب والحساب، مما يجعلها - عنده - من العلوم المحمودة[٤٩] وإلى أن "الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم، لينتظم - باستقامتهم - أمورهم في الدنيا، ولعمرى إنه متعلق أيضا بالدين ولكن لابنفسه بل بواسطة الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا يتم الدين إلا بالدنيا، والملك والدين توأمان، فالدين أصل، والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع"[٥٠].

وهكذا نجد (حاجة) المجتمع الإسلامي - عند الغزالى - رغم اتجاهه الصوفى الذى يعرف به، بل ويعتبر علما من أعلامه البارزين - هى التى تحدد (وضع) العلم، وكونه فرض عين أو فرض كفاية أو محمودا أو مباحا أو مذموما، كما أن خطه الفكرى في كل الحالات واضح، من حيث التداخل بين العلوم وتكاملها، ولو كان يعيش بيننا اليوم في عصر العلم والتكنولوجيا، ودخولهما في (منظومة) الأمن القومي للمجتمع المعاصر، حيث "خلقت قوة العلم وقوة التنظيم في حياة البشرية أزمة فكرية وأزمة أخلاقية معا"[٥١] لأدخل العلوم الطبيعية - علوم الحضارة الحديثة - ضمن منظومة العلوم التى يعتبر اتقانها - أو تحصيلها على الأقل - فرض عين على كل مسلم ومسلمة، بعد أن دخلت هذه العلوم من باب استخداماتها التكنولوجية الواسعة - كل بيت، حتى صار المسلم - في كل بقاع الأرض من مستهلكيها، لا من المنتجين

---

(٤٩) المرجع السابق ص ٢٠، ٢١.

(٥٠) المرجع السابق ص ٢١.

(٥١) اللجنة الدولية بإشراف منظمة اليونسكو: *تاريخ البشرية* - المجلد السادس - القرن العشرون - التطور العلمي والثقافي الجزء الثاني - ٣ - التعبير - الترجمة والمراجعة عثمان نوية وآخرون - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٧٢م ص ١٨٠.

لها، وبذلك صار يعيش (عالة) على الحياة، مما أدى إلى تخريب موارده الاقتصادية، وأدى عسكريا إلى الحالة التى يعرف الجميع تدنيها، تدنيا يصل بنا كمسلمين – إلى درجة من الهوان، لاتخفى عن الجميع، مما صار تهديدا لنا في ديننا، مثلما هو تهديد لنا في دنيانا، حيث نرى أن "أولئك الذين ملكوا ناصية العلم المتطور، كانت لهم الغلبة على أولئك الذين لم يسيطروا على المعرفة والعمليات العلمية سواء نعموا أو لم ينعموا بالاستقلال أو الكيان القومي"(٥٢).

لقد أصبحت هذه العلوم الطبيعية جزءا من (دين) العرب، فنهضت به كما سبق، رغم العداء التاريخي بين المسيحية وبينها، في الوقت الذى يفتح لها الإسلام صدره، ويعتبرها طريق الإيمان الحقيقي كما سنرى.

وضع العلوم الطبيعية والكونية في منظومة التربية الدينية الإسلامية:

من باب أن (الدنيا مزرعة الآخرة) كما رأينا الإمام الغزالى يقول، تدخل العلوم الطبيعية والكونية منظومة التربية الدينية الإسلامية من بابها الواسع، لا لكسب الدنيا وحدها، مع أنها هدف ديني أيضا، خاصة إذا كان كسبها يؤدى إلى إعلاء كلمة الله – في الأرض، ولكن لكسب الآخرة أيضا، حيث إن "حضارة الإسلام نشأت باسم الله، ولم تنشأ باسم العلم، ومن أجل ذلك كان هدف العلم في الإسلام إرضاء الله وإسعاد الإنسان"(٥٣)، وهذا هو الفارق

(٥٢) المرجع السابق ص ١٧٧.

(٥٣) *الرسالة القشيرية*، للإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى – تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمود بن الشريف دار الكتب الحديثة القاهرة – ١٩٧٢م، ص ١١ (من التقديم، للمحققين).

الجوهرى بين الإسلام كنظام للحياة أو دين، بين غيره مـن الديانـات السـماوية والوضعية على السواء.

لقد "أمعن التصور الإسلامي في التوحيد للذات الإلهية، وفي تنزيهها عن الشبه والمشابهة، والمثل والمماثلة"، و"بهذا التوحيد يمتلك المنهج الإسـلامي قسمة يمتاز بها، وتميزه عن كل المناهج والشرائع والديانات والفلسـفات، غير الإسلامية"(٥٤).

على أن "التوحيد الإسلامي ليس كلمة ينطق بها اللسـان، ولا هـو مجـرد تصور فلسفي لعلاقة الإنسان بالخالق، وإنما هو ثروة تحريرية، تعتق الإنسـان بكل طاقاته من العبودية لكل الأغيار"، ومن ثم "كان التوحيد الإسلامي فلسـفة متميزة، لعلاقة متميزة، تجمع الإنسان بالموجد والموجود... فالإنسان مخلـوق لله، وهو خليفته المكلـف بعمـران العـالم، وفـق مقـاصد الشـريعة عقد وعهـد الاستخلاف وهو والطبيعة بقواها وظواهرها مخلوقات تأتلف بعلاقة التساند والارتفاق... وكل المخلوقات أمم وجماعات، وهى مـع كـل مـا فـي السـموات والأرض وما بينها ترتبط برباط العبودية لله، والتسبيح له – سبحانه وتعـالى – وكذلك الحـال بيـن الجسـد والـروح... والـذات والموضـوع والديـن والدنيـا والعلم والدين والعلم والأخلاق والدنيا والآخرة والكواكب والأجرام والمجـرات وعالم الغيب والشهادة والأسباب والغايات والبعد الذاتـى والاجتمـاعي للإيمـان فالكل مجموع برباط التوحيد على النحو الذى يجعـل الوجـود بأسـره بمـن فيـه وما فيه، محكوما بقانون النظام والانتظام، الصادر عـن الواحـد القـادر، الـذى

(٥٤) د. محمد عمارة: *معالم المنهج الإسلامي* – رقم (٣) من (سلسلة المنهجيـة الإسـلامية) – الأزهر الشريف (اللجنة العليا للدعوة الإسلامية)، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي – دار الشروق – القاهرة – ١٤١١هـ – ١٩٩١م، ص ٢٩، ٣٠.

منه البدء، وبه المسيرة، وإليه المصير.. خلق كل شيء فقدره تقديرا"[٥٥].

ويلفت نظر قارئ القرآن الكريم بتمعن هذه المرة للوقوف على موقفه من العلم – أنه يجد نفسه مع الدكتور عماد الدين خليل – "أمام حشد من الآيات البينات، ممتدة وفق أبعاد أربعة، توازى المسألة العلمية في اتجاهاتها كافة، يتناول أولها مسائل تتعلق بحقيقة العلم وآفاقه وأهدافه، فيما يعرف بفلسفة العلم ونظرية المعرفة، ويتناول ثانيها منهج الكشف عن الحقائق العلمية المختلفة، ويعرض ثالثها لمجموعة من السنن والقوانين في مجالات العلم المختلفة، وخاصة الطبيعة والجغرافيا وعلوم الحياة، فيما يسمى بالعلوم المحضة أو الصرفة، ويدعو رابعها لاستخدام هذه السنن والقوانين التي كشف عنها منهج تجريبي في البحث، من أجل ترقية الحياة وتنميتها، على طريق خلافة الإنسان لإعمار العالم، فيما يعرف بالعلوم التطبيقية (التقنية).

وما من شك في أن هناك ارتباطا وثيقا ومحكما بين هذه الأبعاد، يقود أحدها إلى الآخر"[٥٦].

كما يلفت نظر قارئ ما يجرى من أحداث على الأرض من حولنا – في رأيه – أن "الكشوفات العلمية الأخيرة حطمت جدار المادة، وأطلت – وهى تتوغل في صميم الذرة – على عالم الروح، الكامن في بنية العالم وتركيب الأشياء. إن العلم يلتقى هنا مع الدين مرة أخرى"[٥٧]، مما يسقط مقولة "فصل الوحى عن العقل"، التى قيلت – على ما يبدو – بتأثير الفكر اليونانى والمنطق

---

(٥٥) المرجع السابق ص ٣٢، ٣٣.

(٥٦) د. عماد الدين خليل: *مدخل إلى إسلامية المعرفة* – رقم (٧) من (رسائل إسلامية المعرفة) – المعهد العالمي للفكر الإسلامي – القاهرة – ١٤١١هـ – ١٩٩٠م، ص ٢٥.

(٥٧) المرجع السابق ص ٢٧، ٢٨.

الإغريقي على بعض المسلمين، الذين كانوا متلهفين للاستعانة بالمناهج التى وفرها هذا المنطق، من أجل إقناع غير المسلمين بحقائق الإسلام"، حيث "لم يدرك الكثيرون أن فصل الوحى عن العقل أمر مرفوض تماما في الإسلام، فهو معاد لروح الإسلام كلها، معارض لصريح القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية المطهرة"(٥٨).

وإذا كان انجرافنا في ظروف تاريخية مررنا بها - وراء "(الفكرة الغربية) في التربية وعلم النفس"، حتى "صارت هى (الصيغة الوحيدة) في العالم الإسلامي اليوم"(٥٩) - قد قادنا إلى ما نعيشه من تخلف وضعف وهوان، لا بسبب هذه (الفكرة الغربية) وحسب، ولكن بسبب ما جرته على الغرب ذاته، من فقر في مجال (الروح)، فإنها فرصة لنا أن نعود أن نعود إلى (الفكرة الإسلامية) بشأنهما، خاصة وأن "أوروبا في عصرنا هذا تزداد أخذا من فلسفة الشرق، كما يزداد الشرق أخذا من علوم الغرب، ويجوز أن تشب حرب عالمية أخرى فتفتح أبواب أوروبا (كما انفتحت اليونان عند تحطيم أمبراطورية الإسكندر، وكما انفتحت روما عند سقوط الجمهورية الرومانية)، بحيث تتدفق فلسفات الشرق وعقائده، فثورة الشرق على الغرب ثورة متزايدة، وفقدان الأسواق الآسيوية التى كان من شأنها أن تقيم صناعة الغرب وازدهاره، وضعف أوربا، لما يصيبها من فقر وانقسام وثورة، كل ذلك قد

---

(٥٨) المعهد العالمي للفكر الإسلامي: ***إسلامية المعرفة: المبادئ العامة خطة العمل الإنجازات رقم (١) من (سلسلة إسلامية المعرفة)*** - المعهد العالمي للفكر الإسلامي - القاهرة - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ٦٤، ٦٥.

(٥٩) دكتور عبد الغنى عبود: ***التربية الإسلامية والقرن الخامس عشر الهجرى*** - الطبعة الأولى - دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٨٢م، ص ٢١٠.

يجعل من هذه القارة المنقسمة على بعضها، غنيمة سهلة لديانة جديدة، تجعل الناس يعقدون رجاءهم في السماء، ويفقدون الأمل في الأرض"[٦٠].

وإذا كان البديل (لفقد الأمل) في لأرض كما يراه ول يورانت هو (تعليق الأمل) على السماء، فإن هذا شيء مستحيل، لمجافاته (للفطرة) التى فطر الله الناس عليها، وهي أن يعيشوا على الأرض، ومن ثم فإنها فرصة لنا وللإنسانية أن نقدم (البديل) الإسلامي، الذى (تتعانق) فيه السماء والأرض، لصالح الإنسان، في دينه وآخرته على السواء.

في رحاب آية:

والآية التى نتخذ منها نموذجا لهذا (النهج القرآنى)، الذى (تتعانق) فيه السماء والأرض، و(تتعانق) فيه - بالتالى - الأوامر - والنواهى - الدينية بالنواميس الكونية، أو العلوم الشرعية مع العلوم الطبيعية آية تقع في القلب من سورة مكية، تتصدر الجزء التاسع والعشرين من المصحف الشريف، وهو جزء "كله من السور المكية، كما كان الجزء الذى سبقه كله من السور المدنية"[٦١]، وهى الآية الخامسة عشرة من سورة (الملك)، وتتألف من اثنتى عشرة كلمة، نرى فيها سنة من سنن الله في الكون، يترتب عليها أمر إلهي بالتعامل معها، ثم تنتهى بنتيجة تترتب عليها يوم القيامة، حيث يقول سبحانه:

---

(٦٠) ول ديورانت: *قصة الحضارة* - الجزء الثالث (الهند وجيرانها) ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود - الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٠م، ص ٢٨١.

(٦١) سيد قطب: *في ظلال القرآن* - المجلد السادس (الأجزاء ٢٦ - ٣٠) الطبعة الشرعية الرابعة - دار الشروق - بيروت والقاهرة - ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، ص ٣٦٢٨.

﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا، فامشوا في مناكبها، وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾[٦٢].

و"أصل (الذلول) الدابة اللينة، السلهة الانقياد، مشتق من الذل، بكسر الذال، بمعنى اللين، وهو ضد الصعوبة"[٦٣]، ووصف الأرض بها يعني أن الله سبحانه جعلها "لينة سلهة مذللة، لا تمنع المشي فيها، ﴿فامشوا في مناكبها﴾، جوانبها، استدلالا واسترزاقا، أو جبالها وطرقها"[٦٤]، "من مشى عليها وغرس فيها، وبناء فوقها"[٦٥].

ويرى العلامة ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) أن الله سبحانه - في الآية - قد "ذكر نعمته على خلقه، في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة، لا تحيد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع، ومواضع الزروع

---

(٦٢) قرآن كريم: ***سورة الملك - ٦٧***: الآية ١٥.

(٦٣) الشيخ عبد القادر المغربي: ***تفسير جزء تبارك، وهو الجزء التاسع والعشرون من الكتاب الكريم*** - قام بتصحيحه وعلق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية على محمد حسب الله - وزارة المعارف العمومية المطبعة الأميرية بالقاهرة - ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م، ص ١١.

(٦٤) ***تفسير النسفي***، للإمام الجليل، العلامة أبي البركات، عبد الله بن أحمد ابن محمود النسفي، عليه سحائب الرحمة والرضوان الجزء الرابع دار إحياء الكتب العربية مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر القاهرة، ص ٢٧٦.

(٦٥) الشيخ حسنين محمد مخلوف: ***القرآن الكريم، ومعه صفوة البيان، لمعاني القرآن*** - الجزء الأول - الطبعة الأولى - مطابع دار الكتاب العربي بمصر - القاهرة - ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م، ص ٤٤٨.

والثمار"[٦٦] - ليقترب - ولو قليلا من معطيات العلم، وليمهد الطريق لمن يأتى بعده ليقترب اقترابا أكثر.

ويرى عبد الله يوسف على أن "الذلول (Zulúl) لفظ يستخدم لحيوان مدرب وسهل الانقياد (tractable)، وأنه يستخدم هنا منسوبا إلى الأرض، ليدل على أنها رهن إشارة الإنسان وطوع أمره (manageable)، فهو الذى يروضها ويسوسها، وهو الذى استطاع أن يشق طرقا في صحراواتها وخلال جبالها، وفي أنهارها وبحارها بواسطة السفن، وفي الهواء بواسطة الطائرات، كما استطاع أن يشيد الجسور ويشق الأنفاق (tunnels)، وغيرها من وسائل الاتصال. ولم يكن الإنسان ليقدر على أن يفعل ذلك كله، لو لم يزوده الله بالذكاء اللازم، الذى جعل الأرض تنقاد له به"[٦٧].

وبذلك دخل الإنسان في المنظومة، من خلال الذكاء الذى ركب فيه، وبه استحق أن يكون (خليفة) لله في الأرض، ودخل الإنسان - بالتالى - في منظومة التذليل تلك، حيث أعطى الله الحرية "للإنسان ابتداء لكى يصنع تاريخه الفردى والجماعى، ولكى يشكل مصيرهما معا، اعتمادا على ما ركب في وجوده من قوى العقل والإرادة، والانفعال والحس والحركة: والإنسان بدوره - عندما يستخدم حريته لصياغة الحدث، وتوجيه المصير - إنما يعتمد على مقدمات لا يمكنه - بحال - الاستغناء عنها: الزمن، التراب، ثم التعاليم والنظم والقيم والأعراف والتقاليد، وضعية كانت أم دينية. ويبلغ من التناغم

---

(٦٦) *تفسير القرآن العظيم*، للإمام الجليل، الحافظ عماد الدين أبى الفداء، إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى، المتوفى سنة ٧٧٤هـ - الجزء الرابع - ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م، ص ٣٩٧.

(٦٧) Abdullah Yusuf Ali: ***The Holy Qur-an, Text, Translation and Commentary***, Volume Two; Hafner Publishing Company, New York, 1946, P. 1579.

والتداخل والتشابك بين إرادة الله وإرادة الإنسان على خلاف النظرة الغربية حدا يصعب علينا معه، التفريق والفصل والقول، بأن هذا من عمل الله وهذا من عمل الإنسان، وإن كانت القاعدة الأساسية التي يجب ألا تغيب عن أذهاننا لحظة، أن (الكل) من عمل الله"، "إلا أن عمل الإنسان، من خلال العلاقات الكونية الشاملة، يمتلك حريته الكاملة، في الصياغة والتخطيط والتنفيذ واستغلال النتائج"(٦٨).

"والنتيجة التاريخية التي ترتبها المشيئة الإلهية على التجربة الفردية أو الجماعية إنما تجئ منبثقة عن طبيعة التجربة، مشكلة بشكلها، حاملة بصماتها، مستمدة غذاءها ودماءها من عجينتها وشرايينها، وهذا هو العدل بمفهومة الدقيق الكامل"(٦٩)، كما أنه "إذا كان هذا هو موقف الإسلام من الوجود الموضوعي للعالم، ومن وجود الأسباب الفاعلة في الطبيعة والإنسان والمجتمعات، من منطلق أن كل ذلك العالم والإنسان والمجتمعات والأسباب المركبة فيها مخلوق للخالق الواحد سبحانه وتعالى، فإن هذا الموقف الإسلامي هو التعبير – في هذه القضية – عن وسطية الإسلام"(٧٠).

وهكذا يكون في الآية "دليل على ندب التسبب والكسب"، باعتبارهما مما "لا ينافي التوكل"(٧١)، مما يدفع دفعا إلى منظور الآية ومنظور القرآن

---

(٦٨) الدكتور عماد الدين خليل: *التفسير الإسلامي للتاريخ* – الطبعة الأولى – دار العلم للملايين – بيروت كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥م، ص ١٣٨.

(٦٩) المرجع السابق ص ١٤٠.

(٧٠) د. محمد عمارة (مرجع سابق) ص ٤٧.

(٧١) محمد علي الصابوني: *صفوة التفاسير، تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المآثور والعقول، مستمد من أوثق كتب التفسير* – المجلد الثالث– الطبعة الرابعة– دار القرآن=

والإسلام وصحيح السنة إلى العلوم الطبيعية ووضعها، خاصة في هذا العصر الذى نعيش فيه، التى يبدو مساقها كما لو كان قد جاء على هذا النحو ليدلنا على أهميتها، وليصحح منظورنا إليها أيضا، حتى لا نتزلق بشأنها مع المنزلقين.

إن "الناس لطول ألفتهم لحياتهم على هذه الأرض، وسهولة استقرارهم عليها، وسيرهم فيها، واستغلالهم لتربتها ومائها وهوائها وكنوزها وقواها وأرزاقها جميعا ينسون نعمة الله في تذليلها لهم وتسخيرها، في هذا التعبير الذى يدرك منه كل أحد، وكل جيل، بقدر ما ينكشف له من علم هذه الأرض الذلول.

والأرض الذلول كانت تعنى في أذهان المخاطبين القدامى، هذه الأرض المذللة للسير فيها بالقدم وعلى الدابة، وبالفلك التى تمخر البحار، والمذللة للزرع والجنى والحصاد، والمذللة للحياة فيها بما تحويه من هواء وماء وتربة تصلح للزرع والإنبات.

وهى مدلولات مجملة يفصلها العلم فيما اهتدى إليه حتى اليوم تفصيلا يمد في مساحة النص القرآنى في الإدراك.

فمما يقوله العلم في مدلول الأرض الذلول: إن هذا الوصف (ذلولا) الذى يطلق عادة على الدابة، مقصود في إطلاقه على الأرض، فالأرض، هذه التى نراها ثابتة مستقرة ساكنة، هى دابة متحركة بل رامحة راكضة مهطعة، وهى في الوقت ذاته ذلول، لا تلقى براكبها عن ظهرها، ولا تتعثر خطاها، ولا تخضة وتهزه وترهقه، كالدابة غير الذلول، ثم هى دابة حلوب، مثلما هى ذلول.

=الكريم - بيروت - ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م، ص ٤١٨.

إن هذه الدابة التى نركبها تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة، ثم تدور مع هذا حول الشمس بسرعة حوالى خمسة وستين ألف ميل في الساعة، ثم تركض هى والشمس والمجموعة الشمسية كلها بمعدل عشرين ألف ميل في الساعة، مبتعدة نحو برج الجبار في السماء: ومع هذا الركض كله، يبقى الإنسان على ظهرها آمنا مستريحا مطمئنا معافى، لا تتمزق أوصاله، ولا تتناثر أشلاؤه، بل لا يرتج مخه ولا يدوخ، ولا يقع مرة عن ظهر هذه الدابة الذلول.

وهذه الحركات الثلاث لها حكمة، وقد عرفنا أثر أثنين منها في حياة هذا الإنسان، بل في الحياة كلها على ظهر هذه الأرض. فدورة الأرض حول نفسها، هى التى ينشأ عنها الليل والنهار"، "ودورتها حول الشمس، هى التى تنشأ عنها الفصول"، "أما الحركة الثالثة – فلم يشكف ستار الغيب عن حكمتها بعد، ولابد أن لها ارتباطا بالتناسق الكونى الكبير.

وهذه الدابة الذلول، التى تتحرك كل هذه الحركات الهائلة في وقت واحد، ثابتة على وضع واحد في أثناء الحركة – يحدده ميل محورها بمقدار ٢٣,٥، لأن هذا الميل هو الذي تنشا عنه الفصول الأربعة، مع حركة الأرض حول الشمس، والذى لو اختل في أثناء الحركة لاختلت الفصول التى تترتب عليها دورة النبات، بل دورة الحياة كلها في هذه الحياة الدنيا.

والله جعل الأرض ذلولا للبشر بأن جعل لها جاذبية تشدهم إليها في أثناء حركاتها الكبرى، كما جعل لها ضغطا جويا يسمح بسهولة الحركة فوقها".

"والله جعل الأرض ذلولا ببسط سطحها، وتكوين هذه التربة اللينة فوق السطح"، "والله جعل الأرض ذلولا بأن جعل الهواء المحيط بها محتويا

للعناصر التى تحتاج الحياة إليها، بالنسب الدقيقة التى لو اختلت ما قامت الحياة، وما عاشت إن قدر لها أن تقوم من الأساس"، "والله جعل الأرض ذلولا بآلاف من هذه الموافقات الضرورية لقيام الحياة: ومنها حجم الأرض، وحجم الشمس والقمر، وبعد الأرض عن الشمس والقمر، ودرجة حرارة الشمس، وسمك قشرة الأرض، ودرجة سرعتها، وميل محورها. ونسبة توزيع الماء واليابس فيها، وكثافة الهواء المحيط بها .. إلى آخره .. إلى آخره، وهذه الموافقات مجتمعة، هى التى جعلت الأرض ذلولا، وهى التى جعلت فيها رزقا، وهى التى سمحت بوجود الحياة وبحياة هذا الإنسان على وجه خاص"(٧٢).

وهذه الموافقات.. مجتمعة ومتفرقة، أليست هى عناصر العلم، وفروعه التى تدور حولها التخصصات فيه؟

ولا نستطرد في شرح الآية، وحسبنا أننا سلكنا - من خلالها - طريقا أحسبه يجعل لتعليمنا معنى وغاية، ويجعل له محورا يدور حوله.. وبدون ذلك، لا يكون التعليم تعليما، بل لعله يكون.. تجهيلا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(٧٢) سيد قطب (مرجع سابق)، ص ٣٦٣٧، ٣٦٣٨.

المراجع

١- ***القرآن الكريم.***
٢- الإمام أبو حامد الغزالى: ***إحياء علوم الدين*** - المجلد الأول - دار الفكر العربى ودار نهر النيل - القاهرة (بدون تاريخ).
٣- الدكتور أحمد إسماعيل حجى: ***التعليم الجامعى المفتوح، مدخل إلى دراسة علم تعليم الراشدين المقارن*** - دار النهضة العربية - القاهرة - ١٩٩٣م.
٤- الدكتور أحمد عروة: ***الإسلام في مفترق الطرق*** - نقله عن الفرنسية الدكتور عثمان أمين - دار الشروق - القاهرة - ١٩٧٥م.
٥- دكتور الدمرداش سرحان، ودكتور منير كامل: ***المناهج*** - الطبعة الثالثة - دار العلوم للطباعة - القاهرة - ١٩٧٢م.
٦- ***الرسالة القشيرية***، للإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري - تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمود بن الشريف - دار الكتب الحديثة - القاهرة - ١٩٧٢م.
٧- اللجنة الدولية بإشراف منظمة اليونسكو: ***تاريخ البشرية*** - المجلد السادس - القرن العشرون - التطور العلمى والثقافى - الجزء الثانى - ٣ - التعبير - الترجمة والمراجعة عثمان نويه وآخران - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٧٢م.
٨- المعهد العالمى للفكر الإسلامي: ***إسلامية المعرفة: المبادىء العامة - خطة العمل - الإنجازات*** - رقم (١) من (سلسلة إسلامية المعرفة) - المعهد العالمى للفكر الإسلامي - القاهرة - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٩- إلياس أنطون إلياس، وإدوار أ. إلياس: ***القاموس العصرى (عربى/ إنكليزى)*** - الطبعة التاسعة - المطبعة العصرية - القاهرة - ١٩٧٠م.

١٠- إيدجار فور وآخرون: ***تعلم لتكون*** - ترجمة د. حنفي بن عيسى - الطبعة الثالثة اليونسكو/ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٧٩م.

١١- ***تفسير القرآن العظيم***، للإمام الجليل، الحافظ عماد الدين أبي الفداء، إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى، المتوفى سنة ٧٧٤هـ - الجزء الرابع - ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م (بدون ناشر ولا بلد نشر).

١٢- ***تفسير النسفى***، للإمام الجليل، العلامة أبي البركات، عبد الله بن أحمد ابن محمود النسفى، عليه سحائب الرحمة والرضوان - الجزء الرابع - دار إحياء الكتب العربية - مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر - القاهرة (بدون تاريخ).

١٣- جروف ساموبل داو: ***كتاب المجتمع ومشاكله (مقدمة لمبادىء علم الاجتماع)*** - ترجمة إبراهيم رمزى - المطبعة الأميرية ببولاق - القاهرة - ١٩٣٨م.

١٤- الدكتور جميل صليبا: ***المعجم الفلسفى، بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية*** - الجزء الأول - دار الكتاب اللبنانى في بيروت ودار الكتاب المصرى بالقاهرة ١٩٨٢م.

١٥- الدكتور حامد عمار: ***في بناء البشر دراسات في التغير الحضارى والفكر التربوى*** - الطبعة الثانية - دار المعرفة القاهرة - مايو ١٩٦٨م.

١٦- حسن سعفان: (دين) - ***معجم العلوم الاجتماعية*** - إعداد نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين - تصدير ومراجعة الدكتور إبراهيم مدكور - الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٧٥م.

١٧- الشيخ حسنين محمد مخلوف: ***القرآن الكريم، ومعه صفوة البيان، لمعاني القرآن*** - الجزء الأول - الطبعة الأولى - مطابع دار الكتاب العربي بمصر - القاهرة - ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

١٨- سيد قطب: ***في ظلال القرآن*** - المجلد السادس (الأجزاء ٢٦ - ٣٠) - الطبعة الشرعية الرابعة - دار الشروق - بيروت والقاهرة - ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

١٩- صلاح العرب عبد الجواد: ***إتجاهات جديدة في التربية الصناعية*** - من سلسلة (دراسات في التربية) - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٦٢م.

٢٠- عباس محمود العقاد: ***التفكير فريضة إسلامية*** - الطبعة الأولى - المؤتمر الإسلامي - دار القلم - القاهرة (بدون تاريخ).

٢١- عباس محمود العقاد: ***الفلسفة القرآنية*** - دار الإسلام بالقاهرة - ١٩٧٣م.

٢٢- عبد الرزاق نوفل: ***الله والعلم الحديث*** - الناشرون العرب - دار الشعب - القاهرة - ١٩٧١م.

٢٣- دكتور عبد الغني عبود: ***الإسلام والكون*** - الكتاب الثالث من سلسلة (الإسلام وتحديات العصر) - الطبعة الثانية - دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٨٢م.

٢٤- دكتور عبد الغني عبود: ***التربية الإسلامية والقرن الخامس عشر الهجرى*** - الطبعة الأولى - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٢م.

٢٥- دكتور عبد الغني عبود: ***الفكر التربوى عند الغزالى، كما يبدو من رسالته (أيها الولد)*** - الطبعة الأولى - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٦م.

٢٦- الشيخ عبد القادر المغربى: ***تفسير جزء تبارك، وهو الجزء التاسع والعشرون من الكتاب الكريم*** - قام بتصحيحه وعلق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية على محمد حسب الله - وزارة المعارف العمومية - المطبعة الأميرية بالقاهرة - ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.

٢٧- عبد الكريم الخطيب: ***الله ذاتا وموضوعا، قضية الألوهية .. بين الفلسفة والدين*** - الطبعة الثانية - دار الفكر العربى القاهرة - ١٩٧١م.

٢٨- على خليل أبو العينين: ***فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم*** - الكتاب الثانى من سلسلة (مكتبة التربية الإسلامية) - الطبعة الأولى - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٠م.

٢٩- الدكتور عماد الدين خليل: ***التفسير الإسلامي للتاريخ*** - الطبعة الأولى - دار العلم للملايين - بيروت - كانون الثانى (يناير) ١٩٧٥م.

٣٠- د. عماد الدين خليل: ***مدخل إلى إسلامية المعرفة*** - رقم (٧) من (رسائل إسلامية المعرفة) - المعهد العالمى للفكر الإسلامي - القاهرة - ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٣١- فيليب هـ. فينكس: ***التربية والصالح العام*** - ترجمة السيد محمد العزاوى والدكتور يوسف خليل - مراجعة محمد سليمان شعلان - تقديم السيد يوسف - الجمهورية العربية المتحدة - وزارة التربية والتعليم - القاهرة - ١٩٦٥م.

٣٢- كلنتون هارتلى جراتان: ***البحث عن المعرفة، بحث تاريخى فى تعلم الراشدين*** - ترجمة عثمان نويه - تقديم صلاح دسوقي - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٦٢م.

٣٣- مجمع اللغة العربية: ***المعجم الفلسفى*** - الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية - القاهرة - ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٣٤- .....: ***المعجم الوسيط*** - قام بإخراجه إبراهيم مصطفى وآخرون - وأشرف على طبعه عبد السلام هارون - الجزء الأول - مطبعة مصر - القاهرة - ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

٣٥- محمد الغزالى: ***فقه السيرة*** - مطابع على بن على - الدوحة (قطر) (بدون تاريخ).

٣٦- محمد على الصابونى: ***صفوة التفاسير، تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور والمعقول، مستمد من أوثق كتب التفسير*** - المجلد الثالث - دار القرآن الكريم - بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م.

٣٧- د. محمد عمارة: ***معالم المنهج الإسلامي*** - رقم (٣) من (سلسلة المنهجية الإسلامية) - الأزهر الشريف (اللجنة العليا للدعوة الإسلامية)، والمعهد العالمى للفكر الإسلامي - دار الشروق القاهرة - ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٣٨- الدكتور محمد فاضل الجمالى: ***آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية*** - الدار التونسية للنشر - تونس - ١٩٦٨م.

٣٩- محمد فؤاد عبد الباقى: ***المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم*** - دار القلم - بيروت - مكتبة المعارف - الرياض (بدون تاريخ).

٤٠- الدكتور محمد لبيب النجيحى: ***مقدمة في فلسفة التربية*** - الطبعة الثانية - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٦٧م.

٤١- ول ديورانت: ***قصة الحضارة*** - الجزء الثالث (الهند وجيرانها) - ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود - الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٠م.

42- Ali, Abdullah Ysuf: ***The Holy Qur-an, Text, Translation and Commentary***, Volume Two; Hafner publishing company, New York, 1946.

43- Badawi, A.Zaki: ***A Dictionary of the social Sciences, English, French, Arabic***; New Impression, Libraire du Liban, Beirut, 1986.

44- Dewey, John: ***Democracy and Education, an Introduction to the philosophy of Education***; The Macmillan Company, New York, 1916.

45- Dewey, John: ***Education To - day***; G.P. Putmans Sons, New York, 1940.

46- Fowler, H.W. and F.G. (edited by): ***The Concise Oxford Dictionary of Current English***, based on The Oxford Dictionary; Fourth Edition, Revised by E. McIntosh, Oxford, at the Clarendon press, 1951.

47- Kandel, I.L.: ***American Education in the Twentieth Century***; Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, 1957.

48- West, Michael Philip and James Gareth Endicott: ***The New Method English Dictionary***; Twenty - fourth Impression, Longman Group Ltd., 1976.